الطريق إلى الله

الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

الطريق إلى الله

الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

١٢٨٦ - ١٣٥٦ هجرية / ١٨٦٩-١٩٣٧ ميلادية

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول

الطريق وآدابه

حكمة الخلق

الإخلاص فى العبادة

هذا هو مبحث المباحث الذى تجب العناية به، وهو المقصود بالذات من كل مواضيعنا هذه، لأن الله جل جلاله ما خلق الخلق إلا لحكمة واحدة هى عبادته بإخلاص، وقد يسر لهم كل ما يحتاجون إليه فى حياتهم الدنيا مع المزيد.

فأجرى لهم الأنهار وأنزل لهم الأمطار، وخزن لهم الماء فى بطون الأرض وهو العنصر الوحيد لحفظ حياة كل حى من نبات وحيوان وإنسان، فمنح الله الإنسان الماء أكثر مما يحتاج إليه ولكثرته انصب فى البحار الملحة، حتى يعلم الإنسان أن الله تعالى رزقه أكثر من كمالياته.

وخلق له الهواء وجعله معه حيث كان، حتى فى قاع البحار وفى مغارات الجبال، فغمر كل مكان خال بالهواء وخلق النور والحرارة كذلك، وجعل الأرض كلها كنوزاً للإنسان يفتتحها بأقل عمل، وجعل له سبحانه فى كل حركة يتحركها بركة، إما عاجلة له فى الدنيا وإما آجلة له فى يوم القيامة.

ومن ساح بفكره فى نفسه وفيما أحيط به، ينقلب إليه فكره خاسئاً وهو حسير، عاجزاً عن حصر ما شاهده فى أنواع النعم التى لا تحصى والمنن التى لا تستقصى، معترفاً بما أنعم عليه الله من الفضل العظيم، وما أوصل إليه من الخير العميم، ولكن قُتل الإنسان ما أكفره، هذا ما يمكن للفكر أن يكاشف به من أنواع الخيرات، وكيف بما هو فوق ذلك من خفى

الألطاف وسريع الإسعاف وجلى العناية وعظيم الهداية وواسع الإحسان وخير الحنان، فسبحان من لا يعلم قدره غيره ولا يبلغ الواصفون وصفه.

بادرة ما يلوح لمن تفكر فى نفسه وفيما حوله

كل تلك الخيرات المتوالية، والبركات المُفاضة بالفضل والإحسان ورضا الله عنا، بعد أن تفضل بها علينا توجب أن نشكره عليها، فإذا وفقنا وشكرناه، وهب لنا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، من الفيض الأقدس الذى يواجه به أرواحنا ومن الأنوار التى يجعلها فى قلوبنا، ومن العناية منه سبحانه بتوفيقنا لمحابه ومراضيه، حتى نكون كأننا معه سبحانه، ويكون جل جلاله معنا فى هذه الحياة الدنيا، فتكون لنا العزة بالله تعالى.

ثم بعد أن يتفضل علينا بهذا الفضل العظيم، ينسبه إلينا وهو الفاعل المختار، ويتقبله منا كأننا أوجدناه وأحدثناه بقوة منا – ولا حول ولا قوة إلا بالله – فى كل شأن من الشئون.

وهذا فضل على فضل، ثم يتفضل سبحانه بما هو أجل وأعظم، فينعمنا بجوار قدسه بالملك الكبير، ويؤنسنا على بساط منادمته وموائد كرامته، حيث الحبور الذى لا يصفه الواصفون، والمسرات التى لا تفى بها عبارة ولا إشارة، فسبحان ذى الفضل العظيم.

تفضل سبحانه فأوجد الإنسان، ثم تفضل فوهبه الخير العظيم، ثم تفضل فهداه الصراط المستقيم، ثم تفضل فنسب إليه هذا العمل الصالح، وهو الذى خلقه فيه وأعانه عليه، ثم تفضل فجازاه خير الجزاء اللائق بذى الفضل العظيم، فله الحمد مِلء السماوات والأرض ومِلء ما شاء من شئ بعد، فهذا بادرة ما يلوح لمن ساح بفكره فى نفسه وفيما حوله، فكيف بمن ساح فى ملكوت الله الأعلى مقتبساً طرائف العرفان وأنوار الإحسان من مشكاة الأنوار المحمدية.

إلى هنا يقف العقل، وتخرس ألسنة العبارات، وتسكن أعضاء الإشارات.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ الإسراء ٨٥، وقال سبحانه وتعالى لحبيبه ومُصطفاه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ طه ١١٤.

التفكر فى سوابغ النعم

إذا حصل المُريد بخياله صور الكائنات، وما بها من سوابغ النعمى وجزيل الآلاء وواسع الفضل العظيم، وتجلت له آيات الله مشرقة فى نفسه وفى الآفاق، وانتُقشت تلك الصور على جوهر نفسه، فتعقلها عقله وتدبرها قلبه، فشعر القلب بأن تلك المواهب العلية والكنوز الكونية، التى ملئت خيراً له وبركات، لا يحصيها عداً ولا يستقصيها حداً، لم تخلق عبثاً ولم تُترك سدى، وتحقق أن مبدعها القادر الحكيم، وخالقها القوى العليم، ما تفضل بها سبحانه إلا لحكمة أجلاها للبصائر، وسر كاشف به الضمائر، وآيات أجلاها للعقول، ولا تخفى على إنسان كائن من كان، ولكن الأهواء والحظوظ والتقليد هى التى جعلت الإنسان يجهل الطريق الموصل إلى الحكمة والسبيل المبين لها.

والحكمة عبادة الله تعالى، والإخبات لعظمته جل جلاله، والتحقق بأنه هو الله لا إله إلا هو، وأن الإنسان عبد أكرمه الله بعظيم فضله، شديد الاضطرار إلى مولاه، دائم الافتقار إليه جل جلاله، وإن مولاه سبحانه هو الغنى المغنى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ الذاريات ٥٦-٥٧.

العبادة دليل على محبة الله

فإذا تجلت تلك الحقيقة، سارع المؤمن إلى العبادة بأنواعها فى أوقاتها فيؤديها بآدابها، فحافظ عليها دائماً، فإذا وفقه الله تعالى للقيام بما أمره به وترك ما نهاه عنه، تجلت له حكم تلك الأحكام وأسرار تلك الأعمال، فعلم قدر نفسه ونسبته إلى الكائنات، وظهر له جلياً أن الكون وما فيه سُخر له من الله سبحانه وتعالى، فأحب الله بكل قلبه لما تفضل عليه حُباً يجعله مُنجذباً إلى الله بالكلية.

قال ﷺ: (أحبوا الله لما يغزوكم به من النعم، وأحبونى لحب الله، وأحبوا آل بيتى لحبى)، ثم يقوى حبه لله ويشتد شوقه إلى الله تعالى، فتحصل له الرغبة فى القيام بنوافل الخير، بعد عمل الواجبات من ذكر وفكر وخشوع وإخبات، وخوف ورجاء وخشية من الله ورهبة ورغبة، وكلما أشرقت له أنوار الحكمة فيما قام به من الأحكام بتوفيق الله وهدايته، تجلت له أنوار الربوبية فى نفسه وفى الآفاق، فنما شوقه وزاد غرامه حتى تصغر فى عينه الدنيا وما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، فينجذب لأهل التقوى والصلاح، وصحبة العلماء الربانيين، ويفر من كل ما يشغله عمن هو موجه وجهه إليه، ولو كان والداً أو ولداً أو مالاً، خوفاً من حجبه عما يواجهه من جميل الآيات، وما ينبلج له من الأنوار فى الكائنات، حتى قد يبلغ به الأُنس بمشاكليه والبهجة بنظرائه، مبلغاً يجعل الغريب البعيد المخالف له فى لونه ولغته أحب إليه من أبنائه ووالديه، وقد يبذل ماله ونفسه فى إرضائه، أُنسه بجلوسه معه أُنس بمن هو موجه وجهه إليه، ونَفَس أُنس بمشاهدة أحب إليه من الدنيا وما فيها.

* * *

الطريق

تعريف الطريق

الطريق هو السبيل، ومأخذه عند الرجال من قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ الأحقاف ٣٠، وهو فى اصطلاح أهل السلوك إلى ملك الملوك، محو ما بينك وبين الوصول إلى مقصودك، فالسالك إلى نيل قصده يترك وراءه آثاراً كثيرة، حتى يمحو كل بين يحجبه عن مقصده، ولذلك السالك فى طريق الله تعالى ينسلخ من كل ما يحجبه عن الحق جل جلاله، حتى ينمحى البين من البين وتقع العين على العين، إما مراقبة أو رعاية أو شهوداً أو طمأنينة قلب فى مقام اليقين الحق، بعد مراتب اليقين علماً وعيناً.

الطريق وما أدراك ما الطريق

بغية السعداء المنشودة وطلبة من سبقت لهم الحسنى المقصودة، تشتاق إلى علم الطريق وبيان معالمه النفوس الزكية، متسلية عن الجاه والمُلك، ورغبة فى تحصيل هذا العلم، ومسارعة إلى طلب الدال على الله باليقين الحق.

كثائف الجهالات على الطريق

ولما كانت معالم طريق الله تعالى، والأنوار التى تبين سبل الله تعالى – مع وضوح دلالة الآثار المشهودة عليها – قد عميت عنها عيون الحس، وجهلتها قوىَّ النَفْس، وتسلت عنها العقول بما اعتراها من الحُجب، بالمسارعة إلى نيل حظوظ النَفْس والجسم، انكسفت أنوار العقول، وخفيت معالم الطريق إلى الله سبحانه وتعالى، إلا بوازع قوى يجذب الأرواح بعالم ربانى يبين أسرار كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ، أو بعصبة ذات شوكة وسلطان وغيرة لله ورسوله، تقهر الأجسام التى حجبت الأرواح والعقول بمقتضياتها عن السير على الصراط المستقيم، حتى تستريح العقول والنفوس، فتنفذ بقوة هذا الوازع من كثائف الجهالات، وتنهج على المنهج الحق.

ولديها تسلم لله رب العالمين، فتحصل اليقظة للقلب بعد نومة الغفلة ورقدة الجهالة، وتحصل التبصرة للإنسان بعد علم مبدئه ومعاده، فيشتاق إلى السير إلى الله تعالى، والسلوك على طريق أئمة الهدى المهتدين، ويبحث عن الوسائل التى تبلغه تلك المقاصد العلية، فإذا تاقت نفسه بعد اليقظة والتبصرة، كان من أهل طريق الله تعالى، وتحقق بالإسلام الذى هو التسليم لله شرعاً وقدراً، ويسارع إلى تعلم العلم الذى لابُد له منه، وإلى صحبة أهل الخير والتقوى، لأن الحس بريد النَفْس، والمُعاشرة مجانسة، ومن أحب إنساناً غلب عليه طبعه، قال ﷺ: (المرء مع من أحب).

❊ ❊ ❊

بـم ساد أهل الطريق؟

فأهل الطريق رضى الله عنهم لا يصغر فى أعينهم الفقير الذليل ما دام على الحق، ولو قرأت تراجم من سادوا فى عصورهم لرأيت أغلبهم من العبيد، أو من الأذلاء والموالى، أو من أهل المهن الدنيئة.

بم عزوا وبم سادوا؟ بما أظهره الله تعالى على ألسنتهم من الحكمة، وما وهبه لهم من الحب له وفيه سبحانه، وبما وفقهم له من العمل بما علموا، فصاروا عظماء – حتى فى قلوب العصاة والفسقة – لما أظهره الله عليهم من أنوار محبته، فترى الفاسق الفاجر الجبار العنيد، إذا رآهم يخشع قلبه ويتذلل أمامهم، ويسألهم الدعاء له، وهم فى شظف العيش ورداءة الثياب وخشونة الظاهر، ولا ترى أحداً يعاديهم إلا عليم اللسان جهول القلب، أو معانداً للحق خِباً لئيماً لا يؤمن بيوم الحساب.

كفاهم شرفاً أن الله تعالى ألقى عليهم محبة منه سبحانه، فأحبهم الأميون والعامة والصبيان والنساء، وهى سُنة الله فى أوليائه الذين ورثهم أسرار أنبيائه، ولعلك قرأت قوله تعالى: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ هود ٢٧، ولعلك قرأت حديث البخارى فى باب الهجرة عندما أخرج كُفار قريش سيدنا أبا بكر ﷺ، وجاء ابن الدغنة ليمنعهم من إخراجه، فقالوا: إنا نخشى على نسائنا، لأنهن يجتمعن عليه، ويبكين ببكائه، ويجتمع عليه الصبيان والبسطاء ويبكون معه عندما يرتل القرآن باكياً. ذلك لسلامة قلوب العامة، وصفائها من درن الحظوظ والأهواء وحب الدنيا.

منازلات المريدين

ولا يزال المريد يقوى حاله وينمو، حتى يرى أنفاسه أنفس من النفائس، ووقته أعز عليه من نَفْسه، فيبخل أن ينفق نفساً واحداً فى غير منازلة من منازلاته، وللمريد منازلات فى مشاهدات التوحيد ومشاهد العبادات، أبين لك ما يمكن أن يسطر على الأوراق فيما بعد

بمشيئة الله تعالى، فإن للمريد منازلات فى التوحيد يشهدها علماً، ومنازلات فى التوحيد يشهدها عملاً فى صلاته وصيامه وزكاته وحجه.

تفاوت همم المريدين

وفى هذا المقام تتفاوت همم المريدين، وتختلف إرادتهم بقدر الفيض الأقدس والتنزلات الإلهية والمواجهات الربانية، وتزكية نفوسهم وفراغ قلوبهم. فمنهم من يقوم بالعبادات على الوجه الأكمل، ثم يحاسب نفسه بعدها فيتحقق التقصير، فينيب إلى الله ويبكى.

ومنهم من يقوم بالعبادات على الوجه الأكمل، ثم يحاسب نفسه بميزان مشاهد التوحيد، فتنجلى له الحقيقة، ويرى نفسه أنه أشرك بنسبة عمله لنفسه، فيتوب ويبكى من الشرك الذى ألم بنفسه فى عمله.

ومنهم من يقوم بالعبادات على الوجه الأكمل، ثم يحاسب نفسه، مشاهداً المنة عليه بالتوفيق والهداية والعناية والمعونة، فيشتد شوقه إلى المنان الحنان، ويستغرق فى الشهود فلا يفيق إلا وقد دخل واجب الوقت الآخر، فيسارع إلى عمله، وتتجلى له تلك الحقيقة فيحصل له الاستغراق، وهو حال عن مقام التلوين فى وجد، ينتج وجوداً وحالاً قاهراً عن شهود، وقليل ما هم.

ومنهم من مكنه القوى المتين، وثبت قلبه على دينه القادر الحكيم، فجمع له سبحانه وتعالى بين شهود عمله الواجب عليه، ومراقبة المنان الهادى الموفق عند كل عمل، وهذا هو الذى من الله عليه سبحانه بالوجود معه، وهو سبحانه معه، سر قوله ﷺ: (كن مع الله، تر الله معك)، وهذا لا يحاسب نفسه، لأنه واقف بين يدى ربه، فانٍ عن نفسه بمولاه، مستغرق بشهود المنة عليه من الله، وهؤلاء أقل من القليل، وهم الصديقون من أصحاب رسول الله ﷺ، والشهداء من ورثة رسول الله، وتلاميذ الوارث الفرد لرسول الله ﷺ.

❊ ❊ ❊

أحوال تلك المشاهد

هذا ما يمكن أن أشير إليه بالقول والكتابة، ولكل مشهد من تلك المشاهد أحوال تعلوا أهلها، ومواجيد تقهر من تفضل الله عليهم بها، وفيها يحصل الملام، قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ المجادلة ١١، وقال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ آل عمران ١٦٢، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ الصافات ١٦٤، وقال ﷺ: (من آذى لى ولياً آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إلى من أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به).

ومن جهل ما يتفضل الله به على العُمال المخلصين، من المواجهة التى تغنيهم عما سواه، كان لومه معيناً للسالك على ما هو فيه، فإن الجاهل بحقيقة أمر إذا رأى آخر علم ربح التجارة، فترك الأهل والوطن وسافر، يلوم عليه ويعنفه، ويقيم عليه الحجة، لأن هذا عناء وعدم ثقة بالله، وتغرير بالنفس، وضياع للعمر. فلا يقبل الآخر قوله، ولا يصغى لحديثه، ويعتقد أن هذا المتكلم جاهل بقدر الخيرات، جبان سافل الهمة، ولا يرضى أن يضيع أنفاسه ببيان سبل الخيرات له، لاعتقاده أنه لا ينتفع بها، لعلمه بما فطرت عليه نفسه من عدم المسارعة إلى الخيرات.

والسالك فى سبيل الله كلما انبلجت له أنوار مشاهدة وجهه الجميل؛ صغرت فى عينه الدنيا، وتلذذ بالآلام فى سياحته، وابتهج بما يتألم به أهل البطالة، وكيف يصبر من واجهه الحق بوجهه الجميل وناداه من مكان قريب! أنا ربك ووليك، إلىَّ ففر وعلىَّ فتوكل، أنا حسبُك، من طينة صورتك ومن ماء مهين صنعتك، ولأجلك خلقت العرش وما يحيط به، وأعددت لك فى دار كرامتى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فسارع يا عبدى إلى مجاورة حظائر قُدسى، ومواجهتى فى مقعد صدق: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ النساء ٦٩.

آداب الطريق

عم يتخلى القلب وبم يتحلى؟

إن أساس السلوك فى طريق الله تجريد القلب، ونحن هنا سنبين لك مم يتجرد القلب وبم يتحلى، وما هى الصفات التى يجب أن يتجمل بها طالب الله تعالى، ولكى يسهل على القارئ فهم ما نرمى إليه؛ قسمنا الكلام فى هذا الموضوع إلى قسمين:

أولاً التزام أحكام الشرع

هو مراقبة الله تعالى فى سائر الأحوال، ولا يكون ذلك إلا بتأدية الفرائض وترك المحرمات، وامتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، والقيام بالنوافل وتجنب الشُبه مع اعتقاد التقصير والعجز عن أداء ما يليق بجناب الله عز وجل، فلقد قال ﷺ: (سبحانك لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك).

وعليه أن يخلص عمله من الشوائب، وأن يجرد نيته عند القيام بالعمل، فيجعلها خالصة لله تعالى، وأن يسلم أموره جميعها لله، ويرضى بقضائه موقناً أنه لا يكون إلا ما يريد سبحانه، وكل ما أراده فهو خير.

وبالجملة، فزمام هذا الطريق الشرع، فمن التزم أحكامه وتتبع حكمته، ووجد فى الأخذ بهذه المبادئ سهولة ولذة، استطاع أن يسير فى الطريق بقدم ثابت، ومن أهمل العمل بأحكام الشرع وعدل عن منهجه؛ فقد استهوته الشياطين، فضل وأضل وكان مصيره إلى جهنم وبئس القرار.

ثانياً استئصال المعاصى القلبية

المعاصى القلبية إذا لم يستأصلها السائر فى طريق الله من قلبه؛ كانت سبباً فى احباط عمله.

فمن تلك الخبائث الحسد والرياء والعجب والكبر وفقد الرحمة بعباد الله، إلى غير ذلك من الصفات الذميمة، التى تشوه عمل المرء وتجعله حقيقاً بسخط الله ونقمته.

١ الحسد من أقبح الصفات، وهو كما قال عليه الصلاة والسلام: (الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب)، ويتشعب من البخل، إذ البخيل هو الذى يبخل بما فى يده على غيره، والحاسد حاسد لنعمة الله على الغير، وذلك فى خزائن قدرة الله تعالى لا فى خزائنه هو، فشُحه أعظم وعمله أقبح.

وفى الحقيقة أن سوء أدب الحاسد، إنما هو على الله تعالى، لأن النعمة نعمته سبحانه، فالاعتراض عليه.

ولا يزال الحاسد فى عذاب دائم ما دام يرى النعمة على محسوده، ويزيده الله عذاباً بحرمانه من كل ما تطلع إليه، وتمنى لغيره زواله، ولعذاب الآخرة أشد وأكبر، ولله در القائل:

ألا قُل لمن كان لى حاسداً ... أتدرى على من أسأت الأدب؟
أسأت على الله فى فعله ... لأنك لم ترض لى ما وهب

٢ الرياء وهو الشرك الخفى، وحقيقته طلب المنزلة فى قلوب الخلق لينال بذلك الجاه. ولا شك أن حب الجاه من الهوى المتبع وكم أهلك أناساً، فقد ورد أن الشهيد يؤمر به يوم القيامة إلى النار، فيقول: يا رب استشهدت فى سبيلك، فيقول: أردت أن يقال شجاع.

٣ العجب، هو الداء العضال، وحقيقته أن ينظر العبد إلى نفسه بعين العز والاستعظام، وإلى غيره بعين الاحتقار، ثمرته الترفع فى المجالس، وقول: أنا، كما قال إبليس اللعين: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ الأعراف ١٢.

* * *

دلالة المعاصى القلبية من الحديث

وخير حُجة نستشهد بها على ما أوردناه لك، ذلك الحديث الصحيح الوارد عن النبى ﷺ، رواه ابن المبارك بإسناده عن خالد بن معدان أنه قال لمعاذ بن جبل: حدثنى حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، قال: فكبر معاذ وبكى حتى ظننت أنه لن يسكت، ثم قال: واشوقاه إلى رسول الله ﷺ وإلى لقائه، سمعت رسول الله ﷺ يقول لى: (يا معاذ، إنى محدثك بحديث إن أنت حفظته نفعك عند الله، وإن أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله تعالى يوم القيامة. يا معاذ إن الله تبارك وتعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السماوات والأرض، فجعل لكل من السبعة مَلَكاً بواباً عليها. فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين يصبح إلى حين يمسى، له نور كنور الشمس، حتى إذا بلغت به إلى السماء الدنيا زكته وكبرته، فيقول المَلَكُ الموكل بها للحفظة: اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، أنا صاحب الغيبة، أمرنى ربى ألا أدع عمل من يغتاب الناس يجاوزنى إلى غيرى، قال: ثم تأتى الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد له نور فتزكيه وتكثره حتى تبلغ به إلى السماء الثانية، فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا، واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، إنه أراد بعمله هذا عرض الدنيا، أنا ملك الفخر، أمرنى ربى ألا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى، إنه كان يفتخر على الناس فى مجالسهم، قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد يبتهج نوراً، من صدقة وصلاة وصيام، قد أعجب الحفظة، فإذا انتهوا به إلى السماء الثالثة، فيقول لهم المَلَكُ الموكل بها: قفوا، واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، أنا ملَكُ الكِبر، أمرنى ربى أن لا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى؛ إنه كان يتكبر على الناس فى مجالسهم، قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهو كما يزهو الكوكب الدرى وله دوى من تسبيح وصلاة وصيام وحج وعمرة، حتى يجاوزوا به السماء الرابعة، فيقول لهم المَلَكُ الموكل بها: قفوا، واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه وظهره وبطنه، أنا صاحب العُجْبَ، أمرنى ربى ألا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى؛ إنه كان إذا عمل عملاً أدخل العُجْبَ فيه، قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد تزفه كما تزف العروس إلى أهلها، حتى انتهوا به إلى السماء الخامسة، قال لهم المَلَكُ الموكل بها: ارجعوا واضربوا بهذا العمل وجه

صاحبه واحملوه على عاتقه، أنا ملَكُ الحسد، أمرنى ربى ألا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى إنه كان يحسد من يتعلم ويعمل بعمله، ويقع فيهم، قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج وعمرة وجهاد وصيام، حتى إذا انتهوا به إلى السماء السادسة له ضوء كضوء الشمس، يقول لهم المَلَكُ الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه؛ أنا صاحب الرحمة أمرنى ربى ألا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى، إنه كان لا يرحم إنساناً قط من عباد الله أصابه بلاء أو مرض أو ضر، بل كان يشمت به، قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة من صوم وصلاة ونفقة وجهاد وورع، له دوى كدوى النحل وضوء كضوء الشمس، ومعه ثلاثة آلاف ملك، حتى إذا انتهوا إلى السماء قال لهم المَلَكُ الموكل بها: قفوا، واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، واضربوا جوارحه واقفلوا به على قلبه، إنى أحجب عن ربى كل عمل لم يرد به وجه الله تعالى؛ إنه إنما أراد بعمله غير الله تعالى، إنه أراد به رفعة عند الفقهاء وذكراً عند العلماء وصيتاً بين الناس، أمرنى ربى ألا أدع عمله يجاوزنى إلى غيرى لأنه سبحانه لا يقبل عمل المُرائى، قال: وتصعد الحفظة بعمل العبد من طاعة وعبادة وخُلُقٍ حسن وصمت وذكر لله تعالى، ويشيعه ملائكة السماوات السبع حتى يقطع الحجب كلها إلى الله تعالى، فيقفون بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله تعالى، فيقول سبحانه وتعالى: يا ملائكتى أنتم الحفظة على عمل عبدى، وأنا الرقيب على ما فى قلبه؛ ولا أخلصه لى، أنا المطلع على ما فى القلوب لا تخفى على خافية ولا تغرب عنى غاربة، علمى بما كان كعلمى بما لم يكن وعلمى بالأولين كعلمى بالآخرين، فكيف يغرنى عبدى بعمله إنما يغر المخلوقين الذين لا يعلمون، أما أنا فعلام الغيوب، إنه لم يردنى بعمله، ولا أخلصه لى فعليه لعنتى، فتقول الملائكة جميعها: يا ربنا عليه لعنتك ولعنة السماوات السبع ومن فيهن)، ثم بكى معاذ وانتحب انتحاباً شديداً، وقال: يا رسول الله كيف النجاة مما ذكرت؟ قال: (اقتد بنبيك فى اليقين). قلت: أنت رسول الله وأنا معاذ فكيف لى فى النجاة والخلاص؟ قال: (نعم يا معاذ إن كان فى عملك تقصير فاقطع لسانك من الوقيعة فى إخوانك من حملة القرآن خاصة، واحمل ذنوبك ولا تحملها عليهم، وليردك عن الوقيعة فى الناس ما تعلمه من عيوب نفسك، ولا تذل نفسك بذمهم، ولا ترائى بعملك كى تعرف فى الناس، ولا تدخل فى الدنيا

دخولاً ينسيك أمر الآخرة ولا تناج رجلاً وعندك آخر، ولا تتعظم على الناس فتقطع عنك خيرات الدنيا والآخرة، ولا تفحش فى مجلسك كى تحذر الناس من سوء خلقك ولا تمزق الناس بلسانك، فتمزقك كلاب النار فى النار، ثم قرأ ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ النازعات ٢، وقال: أتدرى ما هن يا معاذ)، قلت بأبى أنت وأمى يا رسول الله ما هن؟ قال: (كلاب النار ينشطن اللحم من العظم). قلت: يا رسول الله من يطيق هذه الخصال ومن ينجو منها؟ قال: (فإن الذى وصفت لك ليسير لمن يسره الله عليه، إنما يكفيك من ذلك أن تحب للناس ما تحب لنفسك وتكره للناس ما تكره لها. فإذن أنت قد سلمت).

قال خالد بن معمدان فما كان معاذ يكثر من تلاوة القرآن، إكثاره من تلاوة هذا الحديث.

الجوارح المقابلة لأبواب الجنة والنار

قال أحد الأئمة: إنما حُرموا الوصول لتضييعهم الأصول. ونعم، فإن الطريق إلى الله بدايته العلم ووسطه العمل وآخره معرفة الله تعالى بعد معرفة النفس.

والعلم فى البداية، هو العلم بأركان الإسلام وأحكام المعاملات، ومن تعلم هذا العلم وعمل به، علمه الله ما لم يكن يعلم، قال ﷺ: (من عمل بما علم، ورثه الله علم ما لم يعلم).

وبالعمل بما علم يسلم المسلمون من يد السالك ولسانه، فيكون مسلماً كما قال ﷺ: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)، وفى رواية أخرى: (من سلم الناس من لسانه ويده)، ومتى سلم الناس من لسانه ويده؛ سلموا من باب أولى من جميع الجوارح، فإن كل المعاصى فى الحقيقة سببها اللسان، لا فرق بين معاصى الفرج والبطن وبين معاصى غيرهما، فكأنه ﷺ يقول: من سلم المسلمون من جميع جوارحه، وتلك الجوارح فى الحقيقة هى مفاتيح أبواب الجنة وأبواب النار.

وبعيشك، هل يرضى مسلم يؤمن بالله وباليوم الآخر، أن يفتح على نفسه باباً من أبواب النار ويقفل أبواب الجنة؟ مع أن الله سبحانه مكنه وخيره بين فتح باب الجنة وفتح باب

النار، قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الكهف ٢٩، وشتان بين من يفتح أبواب النار فى مجلس واحد، وبين من يفتح أبواب الجنة فى نَفَسٍ واحد.

١ فتح أبواب الجنة

مثال ذلك: رجل مشى برجليه لزيارة عالم حتى وصل إليه، ففتح باب الرجلين. وجلس معه فسمع الحكمة فوعاها، ففتح باب الأُذنين. ونظر إلى الفقراء معه فشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه من اليسار والعافية، ففتح باب العينين. ثم ذكر الله تعالى مع الذاكرين معه، ففتح باب اللسان. ثم مد يده بصدقة لفقير أو لغيره، ففتح باب اليدين، ثم تحمل الجوع مع العالم – لأن أكثرهم فقراء – ففتح باب البطن. ثم تذكر ذنوبه لحلاوة الحكمة فتاب إلى الله، ففتح باب الجنة المُعد للفرج. وهو باب الخيام المضروبة على المقصورات من الحور، ثم سمع علم التوحيد وعين التوحيد وحق التوحيد. فانفتح له باب القلب فى الجنة، وهو مقعد الصدق للصادقين والصديقين، كل ذلك فى نَفَس أو أكثر.

٢ فتح أبواب النار

مثال ذلك: خرج رجل ليزور حاكماً لغرض دنيوى، يريد به أذية الغير، أو يريد به الجاه ليعظم بين الناس، أو يريد به رفعة درجة، أو وظيفة، أو إكبات عدو، ففتح باب النار، المعد للرجلين. فلما جلس بين يديه اضطر أن يصدقه فيما يقول، أو يعينه على كشف عورة من عورات أهل الإيمان، ففتح باب الأذنين. ثم تكلم بما لا يرضى الله ورسوله ففتح باب اللسان. ثم قدم له تحفة من طعام أو شراب ففتح باب البطن. لأنه أكل بمعصية الله ما لا يستحق إلا بمعصية الله، ثم نظر إلى الزينة والأثاث فأنكر نعمة الله عليه وأصغرها، ففتح باب النار للعينين. حتى يفتح أبواب النار كلها. ثم يراه عظيماً نافعاً ضاراً فيسلب الإيمان من القلوب فى مجلس واحد، أعاذنا الله من ذلك.

ومثال آخر: وهو أن يخرج لزيارة أهل الدنيا من إخوان السوء، فيجلس معهم للغيبة

والنميمة وسب المؤمنات الغافلات، وقد يتجاوز ذلك إلى سب العلماء العاملين الصالحين المصلحين، وقد يتجاوز ذلك إلى سب ولاة الأمور المخلصين أهل العدل، وقد يتجاوز ذلك إلى أكل وشرب ما هو حرام، قال تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الأنعام ٦٨، وقال ﷺ: (المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل).

❊ ❊ ❊

الباب الثانى

مراحل الطريق

ما يجب أن يحصله المسافر فى طريق الله

أولاً الاستعداد قبل السير

لما كان كل مسافر إلى مقصد عظيم وجب عليه أن يستعد لهذا السفر استعداداً يطمئن به قلبه على نفسه، فيصحب الرفقة التى يأنس بها، ويدفع بها عن نفسه ما لا قبل له به، والزاد الذى يبلغه مقصده حتى يرجع لأهله، والسلاح الذى يستعمله عند لقاء اللصوص أو الوحوش، والمال الذى يدخره للضرورة، والراحلة التى تحمله، والأثاثات التى لابُد له منها من البيوت التى تكنه، واللباس الذى يقيه الحر والبرد.

وأهم ما يلزم المسافر؛ الخبير الذى يسلك به على الطريق الموصل، والعالم بالطريق عِلماً عن تجربة وكثرة مروره به. هذا ما يلزم المسافر فى أموره الدنيوية.

أما المسافر إلى حضرة الملكوت الأعلى، فله لوازم ضرورية لابُد منها، وهى من الأهمية بمكان، حتى يمكنه أن يبلغ مقصده الملكوتى، فإذا هم أن يسافر فاراً إلى الله تعالى من كون الملكوت، كثرت لوازمه وازدادت حاجاته. كل تلك المعدات يجب أن تكون موفرة للمسافر قبل سفره بزمن طويل، فلا ينبغى له أن يسافر إلا بعد كمالها، فمن أخطأ فى إعداد العدة

خاطر بنفسه، فلا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

ثانياً أن يحصل فقه الشريعة عقيدة وعبادة

١ علم التوحيد

ويُحصل بالتلقى عن أهل الخشية من الله تعالى، وهو الركن الذى يجب المسارعة إليه قبل كل شئ، ولا ينبغى للسالك فى طريق الله أن يلتفت إلى شئ قبله، إلا ما لا يتحصل على هذا العلم إلا به من الضرورى، كالغذاء والنوم وقضاء حاجة الإنسان، والسعى فى تحصيل ذلك.

ولا أعنى به أن يتلقاه الإنسان بالطريقة التى يلقنها أدعياء العلم بالأقيسة المنطقية التى أخذوها عن اليونان، فإن ذلك ـ والعياذ بالله ـ من البدع المُضلة، ولم يكن فى عصر رسول الله ﷺ، ولا فى عصر الصحابة رضوان الله عليهم، ولا التابعين وتابعيهم بإحسان. وإنما تتلقى العقيدة بطريقة السُنة كما بين ذلك رسول الله ﷺ، وبالمآخذ القرآنية، فإن الله تعالى بينها فى كتابه العزيز بطريقة البرهان، الذى لا يفهمه إلا من تزكت نفسه وصفا خياله واطمأن قلبه للحق، بما جعله الله فيه من النور والهدى.

٢ علم العبادات

يجب على السالك بعد ذلك أن يتلقى العبادات عملاً عن أهل الخشية بصحبتهم، حتى يكون صورة لأصحاب رسول الله ﷺ، عاملاً بما كانوا عليه. فإن أهل الخشية تلقوها عملاً ممن تلقاها عمن تلقاها إلى رسول الله ﷺ، قال ﷺ: (أتانى جبريل فصلى فصليت، ثم صلى فصليت ـ وكررها خمساً ـ فصلوا كما رأيتمونى أصلى)، يشير ﷺ إلى أن علم الصلاة يجب أن يكون عملياً لا بالدراسة، وإنما هى القلوب متى خشعت من علام الغيوب، قامت مواجهة لجنابه العلى وحسن وقوفها بين يديه سبحانه.

ثم يتعلم الصيام والحج والزكاة عملاً أكثر من تعلمها علماً، فإن تلقى أنواع العبادات

بالعمل ينقش على القلب صورة نورانية، تجعل الجسد هيناً ليناً للقيام بها. وتلقيها بالعلم يجعلها كالمعانى التى يتعقلها الإنسان ولا يشعر بالمقصود منها. ولذلك فإنك ترى دُعاة العلم الذين يعلمون الناس أركان الإسلام؛ يتهاونون بالقيام بها، فقد يجلس الرجل يتحدث مع الآخر فيفوته الفرض والفرضان، وقد يقف فى الصلاة وقلبه مشغول بغير من هو مواجهه سبحانه، ويخرج من الصلاة مسرعاً إلى عمل ربما كان يدبره فى الصلاة، وهو لا يشعر أين كان... أصلى ثلاثاً أم أربعاً!

ثالثاً أن يحصل من القرآن ما يكفيه

بعد تحصيل ذلك يجب أن يحصل من القرآن ما يكفيه لصلاته ولتلاوته وتدبره، وللتلذذ بسماع كلام ربه من نفسه، حتى لا يمضى عليه يوم إلا وقد تكلم مع الله سبحانه بكلامه المقدس، والواجب على المريد أن يفهم ما حفظه من القرآن، فإن حفظ شيئاً من القرآن بغير فهم، وجب عليه أن يسارع إلى خدمة من يفهم منه ما حفظ من القرآن، حتى لا يكون كالببغاء يقرأ كلام الله بغير فهم، وحسب المسلم جهالة أن يقرأ شيئاً من كلام الله غير فاهم معناه، وهل إنسان يحب آخر ويجهل كلامه! هذه دعوى باطلة.

وما حجبت أنوار الطريق وأسراره عن عيون البصائر، وحرم المريد أنوار المواجهات عند القيام بالقربات، إلا من التهاون بفهم كلام الله، ولم تكن خوارق العادات للسلف، والهمم التى تنفذ فى عظائم الشئون، وقوة سلطان المسلمين واتحاد كلمتهم واجتماع قلوبهم، ومسارعة كل مسلم لخير المجتمع الإسلامى، إلا بفهم كلام الله تعالى. ومن انتسب إلى الطريق ولم يفهم ما حفظه من كتاب الله فهو فى طريق هواه وحظه. وإلا فما الذى يدعو المريد أن يجعل نفسه كالميت بين يدى المرشد، فيتصرف فى نفسه ودينه وماله، إلا ليجعله فى معية رسول الله عليه الصلاة والسلام، إنساناً كاملاً عاملاً من عمال الله.

وإنما أهل الطريق من صغر فى نظرهم كل شئ، فى سبيل تحصيل كلام الله، وعلم أحوال رسول الله ﷺ.

رابعاً أن يجاهد نفسه فى ذات الله

إن النَفَس عند السالك أغلى من نَفْسه، فلا يصرفه إلا فى تكميلها الكمال الذى به يكون فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ النساء ٦٩، وليس الفيض القدسى والنور الروحانى والعلم الربانى، بمحظور عليه بزمان أو بمكان، وإنما هو لمن يبذل نفسه وماله فى نيله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ التوبة ١١١.

وإن المقاتلة العظمى فى سبيل الله هى مقاتلة الشخص نفسه لتكميلها، قال ﷺ: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس). فالإقدام بالملحمة بين صفوف الأعداء أمام نار المقذوفات جهاد أصغر، ومجاهدة المُريد نفسه فى ذات الله جهاد أكبر، ولا جهاد فى الحقيقة إلا بفهم كلام الله تعالى، وعلم غوامضه والعمل به. وإن العامل بكتاب الله السالك على منهج رسول الله ﷺ فى جهاد أكبر ممن ألقى بنفسه بين نيران المقذوفات، لأن الذى ألقى بنفسه بين نيران المقذوفات، شهد بعينه الجنة فتحت له فسارع إلى الجنة، لا إلى نار وطعن. وإن من شهد الجنة فتحت له، لا يشعر بما أصابه فى سبيلها.

بالعمل بالقرآن ملكنا الأرض شرقاً وغرباً، وسُدنا على العباد سراً وجهراً، واستجاب الله لنا، وسخر لنا ملائكة سماواته، وبإهمال فهم القرآن أصبح من أهملوه عالة على أهل الكفر بالله وأتباعاً وأذلاء لهم، فإذا كان فهم القرآن عزاً ومُلكاً ومجداً فى الدنيا، فكيف يكون فى الآخرة؟ ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ الرعد ١٩، فالقرآن يجب أن نحبه ديناً، ونحبه لأنه صدر عن الله، وأنه صفة من صفاته، وفيه تجلى لنا الله وظهرت لنا معانى صفاته، وكاشفنا فيه بمحابه ومراضيه، وبين لنا ما يكرهه ويغضب لعمله، ونحب القرآن لأنه الشمس المشرقة للأرواح الملكية وللنفوس الزكية وللقلوب المطمئنة بذكر الله. اللهم إنى أشهدك أنى ـ ولك الحمد ولك المنة ـ أحب كلامك العزيز، وأحب أن تقام حدوده، وأن يكون العمل به، فتفضل

يا ذا الفضل العظيم، واعطنى محابى فيك سبحانك، وحصنى بالقرآن من مخالفته، إنك ولى المؤمنين.

❊ ❊ ❊

الحث على اتباع سُنة خير المرسلين

اتباع السُنة واجب لصحة الإسلام

قدمت لك أن الطريق إلى الله تعالى هو العمل بكتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، وما كان يعمل سلفنا الصالح عضاً بالنواجذ على سُنة رسول الله ﷺ. وهنا أبين لك من الكتاب والحديث ما به تعلم حق العلم، أن العمل بكتاب الله والسُنة المطهرة ينال بهما المسلم محبة الله تعالى له، والتى هى بغية أولى العزم من الرسل.

اعلم يا أخى – وفقنى الله وإياك لما فيه اتباع سُنة رسول الله ﷺ – أن أبلغ آية دعانا الله فيها إلى اتباع السُنة، هى قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ الحشر ٧، ثم قوله سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ النساء ٦٥، من هاتين الآيتين وغيرهما يتضح لك أن اتباع رسول الله ﷺ فرض واجب لصحة الإسلام.

وكل من يخالف السُنة فقد عرض نعمة الإسلام للزوال. قال ﷺ: (لا يؤمن أحدُكم حتى يكونَ هواه تبعاً لما جئت به) وقال ﷺ: (من ضيع سنتى حرمت عليه شفاعتى، ومن أحيا سنتى فقد أحيانى، ومن أحيانى فقد أحبنى، ومن أحبنى كان معى يوم القيامة فى الجنة) وجاء فى الآثار المشهورة أن المتمسك بسُنته ﷺ عند فساد الخلق واختلاف المذاهب والملل، كان له أجر مائة شهيد، وأنه كالقابض على الجمر، أى لا يسعه تركه ولا إمساكه.

❊ ❊ ❊

ما المراد بالسُنة؟

المراد بالسُنة ما نقله إلينا أتباع رسول الله ﷺ وأصحابه، من أقواله وأعماله وأحواله وإقراراته، وما كان عليه الخلفاء الراشدين وأصحابه الذين عاصروه من بعده، ثم الذين يلونهم من التابعين ومن بعدهم، وكل ما أحدث بعد هؤلاء مما يخالف منهاجهم فهو بدعة، وكل بدعة ضلالة، يجب علينا محاربتها قدر استطاعتنا، فإن الصحابة رضوان الله عليهم هم القدوة المثلى لنا بعد رسول الله ﷺ، وقد كانوا ينكرون أشد الإنكار على من أحدث أمراً أو ابتدع رسماً لم يعهدوه فى عصر النبوة، سواء كان صغيراً أو كبيراً، فى المعاملة أو فى العبادة والذكر.

ومن الأدب ترك البحث والتفتيش فيما جاءت به السُنة إذا صح سنده واستقام متنه، فإنه يجر إلى الطعن فى الدين الذى هو مفتاح الضلال. وما هلكت الأمم الماضية إلا بطول الجدال وكثرة القيل والقال، وإنما يجب على المسلم أن يعض بنواجذه على ما ثبت من السُنة، ويعمل به ويدعو إليه ويحكم به، ولا يصغى إلى كلام أهل البدع ولا يميل إليه.

❊ ❊ ❊

فرائض الإيمان وشعبه

فرائض الإيمان

وهنا يجب أن نبين لك ملة الإسلام الصحيحة التى وردت عن رسول الله ﷺ فى حديث جبريل عليه السلام لأنها أساس الطريق المتين وحصنه الحصين، وهى: أن يؤمن العبد ويصدق بالله تعالى وحده لا شريك له، ويؤمن بملائكته وكتبه ورسله أجمعين، وبالبعث بعد الموت، وبالقدر خيره وشره من الله، ثم يرى الإقرار الصحيح بذلك كله فرضاً لازماً، فيقر به، ويقيم الصلوات الخمس لأوقاتها على شرائطها وحقوقها، ويؤدى الزكاة فى المال لوقتها وبشرائطها، ويصوم رمضان، ويحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً.

ويرى أن من انطوى قلبه على هذه الفرائض جميعها، ودل بها لسانه وعمله واطمأن إليها قلبه؛ فهو مؤمن من أهل الجنة، بفضل الله تعالى وكرمه.

شُعب الإيمان

ويرى أن المؤمن لا يخرجه عن إيمانه ذنب، كما يخرج بالكفر والشرك والنفاق، ويكل سريرتهم إلى الله تعالى يوم القيامة، إن شاء عاقبه بما شاء إلى ما يشاء، وإن شاء عفا عنه بدليل قوله ﷺ: (أنه يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان)، أى أدنى شئ من يقين الدين. وأن لا يكفر أحداً بذنب، ولا يخرجه من الإسلام بعمل.

وأن يكف لسانه عن أهل القبلة، ولا يشهد على أحد منهم بالكفر والشرك والنفاق، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى.

ومن سُنة الإسلام أن يعلم بأن القلم قد جرى بما هو كائن من أمر الدين والدنيا، رطبها ويابسها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ الأنعام ٥٩، وأن السعادة والشقاوة مكتوبتان، وكل ميسر لما خلق له، فلا تقديم لما أخره الله ولا تأخير لما قدمه، ولا تعطيل لما أحكمه ولا نقض لما أبرمه، وكل ذلك بقدر الله.

وأن يصلى العيد والجمعة خلف كل بر وفاجر من ولاة الإسلام، ويصلى على من مات من أهل القبلة كائناً من كان.

ويجاهد مع كل خليفة أعداء الله، ولا يخرج على إمام المسلمين بالسيف، ولا على أحد من أهل الإسلام، بل يدعو لهم بالصلاح والخير والمعافاة والاستقامة والرشاد والسداد، ويدعو لإمام المسلمين ويطيعه فيما يأمر به مما أباحه الدين، وإن كان عبداً حبشياً.

ولا يطعن فى سلف العلماء بما زلت به أقدامهم ولا يتخذهم غرضا.

ويتورع جهده عن مطاعن الصحابة رضوان الله عليهم، فقد كانوا فى أعلى مراتب

التقوى والبر واليقين والزهد والهدى، وقد وعدهم الله المغفرة فى سقطاتهم بصحبة سيد البشر عليه الصلاة والسلام، فمن الواجب على كل مسلم ألا يبسط لسانه فيهم إلا بأحسن ما يقدر عليه، فإن أحداً لو أنفق ملء الأرض ذهباً لم يبلغ بعض ما كانوا عليه رضى الله عنهم، ومن كمال حب المسلم لرسول الله ﷺ حب أصحابه من أجله.

ولا يخاصم ولا يجادل أحداً فى الدين، فإن ذلك يحبط الأعمال.

ولا يمارى أحداً فى شبهات القرآن، فإنه يقرع بذلك باب الضلال، فإن ألجأه أمر إلى المحاجة فليكن سائلاً متمسكاً بآداب السؤال.

ويؤمن بعذاب القبر ويتعوذ بالله تعالى.

ولا يتكلم فى الدين برأيه، بل يتبع السُنة فى كل ما يقول ويعمل ويقرر.

ولا يتبع القياس فى جميع مسائل الدين وأحكامه، فإن أول من أخذ بالقياس إبليس اللعين.

ولا يناظر فى صفات الله ولا فى ذاته أحداً، فإنه سبحانه وتعالى منزه عن القياس والأشباه والأوهام والخطرات، ففى الحديث: (أن هلاك هذه الأمة إذا تكلموا فى ربهم، وأن ذلك من أشراط الساعة).

ويجب أن يترك التكلم فى القدر والمجادلة فيه، فإن ذلك من إشراك الأمم السابقة، وليبحث له عن عالم ربانى يكشف له ما يشتبه عليه من هذه الأمور. والله ولى التوفيق.

البحث عن المرشد الدال على الله

ولما كان العلم لابُد أن يكون بالتعلم، وكان السالك فى الطريق لابُد له من المعلم، والمعلم محل الإجلال والتعظيم، وهو الذى يجب له السمع والطاعة، لأن السالك يسلمه نفسه

فيزكيها له، ويتلقى عنه أحكام دينه ليقلده فى عقيدته وأعماله وأحواله، فأول واجب على السالك فى طريق الله تعالى، أن يبذل غاية الهمة فى البحث عن هذا العالم، ليفوز برضوان الله الأكبر، ويعمل لخير نفسه وخير المسلمين جميعاً. ومن أهمل فى هذا الموضوع الجليل فلم يبحث عن عالم ليتعلم، أو لم يدقق فى البحث عنه، وسلم نفسه لمدع أو مبتدع، فقد أخطأ نيل الوسيلة، ومن أخطأ نيل الوسيلة حُرِم المقصد، وسيان عندى من أهمل فى تحصيل العلم، ومن صحب رجلاً بغير بصيرة وبحث عن حقيقته، ليتبين له أنه مرشد حقاً، وهنا أبين لك أوصاف المرشد، حتى تكون على بصيرة من أمرك، والله ولى التوفيق.

* * *

أوصاف المرشد

المرشد هو الحى القائم الدال على الله، والعالم بالنفوس وأمراضها عن نزوغ الشهوات والأهواء، وميول إلى ما يلائم النفس، العالم بالحقائق التى خلق الله منها الإنسان، فإن الله جل جلاله خلق الإنسان متطوراً فى بطن أمه، من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام ثم كسىَّ العظام لحماً ثم أنشأه خلقاً آخر، بعد أن افتتح خلقه من سلالة من طين، ثم جعل سبحانه وتعالى فوقه سبع طرائق.

وهذا العالم بالنفوس هو عالم بالله وبأيام الله وبأحكام الله، وطلبه فريضة، لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم، والعلم بالتعلم والتعلم بالعالم، ومتى سعد السالك فى طريق الله بهذا العالم، أكمل الله له دينه وأتم عليه نعمته ورضى له الإسلام دينا. والمعلوم أن العالم أجمع لا يجهل الله الحق الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما واستوى على العرش، وإنما المجهول علم ما يحبه ويرضاه، من العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات، والقيام بما يحبه ويرضاه من العقيدة والعلم وشهود أنواره وأسراره وآياته فى مكوناته، مع كمال التنزيه والتسليم لله تعالى، من غير منازعة بالعقول ولا مخالفة بالنفوس، حتى يصلوا إلى مقام من أثنى الله عليهم بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الأنعام ٨٢.

أخذ العهد على المريدين

البيعة فى الكتاب والسُنة

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ المؤمنون ٨، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ البقرة ١٧٧، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ الإسراء ٣٤، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَۚ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ الفتح ١٠، وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ الفتح ١٨، وقال ﷺ: (بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً) الحديث. فالعهد أولاً أخذه الله تعالى على رسله الكرام، بأن يكونوا أمة لحبيبه ومصطفاه، وإن أدرك زمانه أحدهم. وأخذت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم العهد لله على أممهم، وقام العلماء الربانيون بأخذ عهد الله تعالى بالنيابة عن رسول الله ﷺ على أهل عصرهم فى كل زمان، بأن يبينوا لهم ما أوجبه الله تعالى عليهم، وما رغبهم فيه، وما كان عليه رسول الله ﷺ وأئمة الهدى، ثم يأخذون عليهم العهد أن يأتمروا بما أمرهم به الله والرسول، وينتهوا عما نهى الله ورسوله عنه.

الجنة وفاء من الله بعهده للمؤمنين

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ التوبة ١١١، وكما أن الله أخذ عليهم العهد أن يقوموا بالعمل بوصاياه سبحانه، فقد ضمن لهم ـ فضلاً منه وكرماً ـ أن يدخلهم الجنة، وبشرهم بأن يفى لهم بعهده سبحانه، قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ البقرة ٤٠، وفى تلك الآية سر غامض تلوح أنوارها لمن انتشل من أوحال التوحيد، إلى فضاء التنزيه والتفريد بعد التزكية والتجريد، وأشرقت أنوار الحضرة العلية حضرة الرب العلى الكبير، على حضرة العبد الذى واجهه الرب جل جلاله، فأشهده معانى ربوبيته، فتحقق بالتمكين بالقيام بحقوق العبودية، فكان الرب جل جلاله مع العبد، والعبد المضطر مع الرب، معية جعلت العبد متحداً مع ربه جل جلاله فيما يريد، بمحو العبد فى مراد الرب، وَهمَ العبد فى استجلاب رضاء الرب جل جلاله.

وبذلك تقوى الرهبة والرغبة من عظمة العظيم، وفى الفضل العظيم من الله تعالى، ويشتد الخوف من مقام الرب جل جلاله، والطمع فى عفوه ومغفرته، فتكون معانى الربوبية معالم بين عينى العبد، فلا يرى شيئاً إلا ويرى أنوار الربوبية قبله وفيه وبعده، وبذلك يكون ربانياً يفقه عن الله، ويتلقى بسره عن رسول الله، ويكون له وجود عينى بالله تعالى، ثابت بإثبات الله له، ظاهر بإظهار الله له، عامل فى محاب الله ومراضيه بتوفيق الله وهدايته، فيكون له من الله الفضل العظيم، وعليه الواجب المقدس الذى هو معرفة حكمة إيجاده له سبحانه وتعالى، وسر إمداده منه سبحانه وتعالى، ولذلك فإنه سبحانه بعد أن قال: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ البقرة ٤٠، قال: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ البقرة ٤٠، لأن هذا الخطاب المقدس ربما أشهد السالك فى مقام فرقه بعد الجمع، مشهداً يجعل رغبته ورجاءه وطمعه وأُنسه، وشهوده سوابغ النعماء وجميل الآلاء، وتسخير كل شئ هو فى المُلك والملكوت، يقوى فيستر عنه مشاهد المنة وبوارق العظمة والعزة والكبرياء، فربما يأنس بمشهد دون مشهد، فأشار سبحانه بقوله: ﴿وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ البقرة ٤٠، أى أن مقام العبودة أرقى من مقامات العبادة والعبودية.

وإنما الأحوال نتائج الشهود، والشهود نتائج المقامات، فمن غلب عليه مقامه قهر حاله. ومقام الرهبة أعلى المقامات، لأنه عن علم آيات عظيم كبير متعال علىٍّ قادر منان. وكم من سالك وقف عند مشاهد الرغبة والرجاء والطمع، ولم يتجاوزها إلى مقامات التمكين وحق اليقين، فتاه شاطحاً، فيتداركه الرب جل جلاله بنعمة منه، والله أرحم بالسالكين من أنفسهم بأنفسهم، ورسوله ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

وفى تلك الآية الشريفة من غوامض الأسرار، مما تكاشف به النفوس الطاهرة، قبس من مشكاة الأنوار تواجه به السرائر من أنوار الكوكب الدرى، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

❊ ❊ ❊

كيفية أخذ العهد

لما كان العلماء الربانين ورثة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وكان لابد من تجديد عُرى الإيمان، لأن الإيمان يخرق كما يخرق الثوب وتخفى معالمه، ولكن الله سبحانه وتعالى يجدده على ألسنة العارفين به.

ولما كان المرشد خليفة رسول الله ﷺ، فى بيان شُعب الإيمان وتفصيل ما أجمل من السُنن وتوضيح ما أبهم منها، وبيان سبل الله، كان عليه بعد أن يعلم تلاميذه ما يجب عليهم، أن يعاهدهم بالنيابة عن رسول الله ﷺ، ويواثقهم له صلوات الله وسلامه عليه، مبيناً لهم أن يده التى يضعها على أيديهم هى يد رسول الله ﷺ، حتى يكون صورة كاملة لرسول الله ﷺ.

فاصطلح أهل الطريق رضى الله عنهم أن يبتدئوا مع المريد بتعليم العلم الواجب على المريد فى الوقت، من علوم المعرفة والأخلاق والعبادات والمعاملات، وآداب رسول الله ﷺ، ثم يواثقونه بعد ذلك على أن يعمل بما علم بقدر استطاعته، وينتهى عما نهى عنه الله جملة واحدة إلا ما أُكره عليه كما يبينونه له، فيبايعونه البيعة الكاملة على أن لا يشرك بالله شيئاً، وأن يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويصوم رمضان ويحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً، وأن يجتنب الكبائر والفواحش ما ظهر منها وما بطن، وأن يجاهد نفسه وهواه فى ذات الله، ويبينون له: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ التوبة ١١١، هذا سر العهد عندهم، ولا ينبغى أن يُعاهد المريد إلا عارفاً ربانياً، يصح أن يكون صورة كاملة لرسول الله ﷺ بحسب زمانه، لا بحسب المعانى المحمدية الكاملة.

أصول الطريق

العقيدة

العقيدة هى أصل الأصول

هى أصل الأصول التى عليها مدار العبادات والأخلاق والمعاملات، وبها نيل الرضوان الأكبر يوم لا ينفع مال ولا بنون، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ النساء ١١٦، ومتى انعقد القلب على العقيدة الحقة التى مأخذها الكتاب والسُنة، وبيان الأئمة، أشرقت أنوارها على الجوارح، فسارعت إلى محاب الله ومراضيه، وإنما تكون الاستقامة بقدر العقيدة الحقة، تجعل المتجمل بها حاضراً مع الله لا يغيب، عاملاً له سبحانه بالإخلاص لا يخالفه، مراقباً له جل جلاله فى خلوته ومجتمعه، محاسباً نفسه على كل صغيرة وكبيرة، يرى الجحيم حضوراً أو استحضاراً، وبعيشك... من رأى الجحيم بعين اليقين، كيف يخالف القوى القهار المتين؟!

العقيدة من أقوال أئمة الطريق

وإليك ما قاله أئمة الطريق فيما جملهم الله تعالى به من حسن العقيدة:

قال الإمام أبو القاسم القشيرى فى رسالته فى علم التوحيد: اعلم أن شيوخ الطريق بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة فى التوحيد، صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة، من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل، وعرفوا ما هو حق القدم، وتحققوا بما هو نعت الوجود عن العدم.

وقال أبو بكر الشبلى رضي الله عنه: الواحد المعروف قبل الحدود وقبل الحروف.

وسُئل رويم عن أول فرض افترضه الله عز وجل على خلقه ما هو؟ فقال: المعرفة، لقوله جل جلاله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات ٥٦، قال ابن عباس: إلا ليعرفون.

وقال أبو الحسن البوشنجى: التوحيد أن تعلم أنه غير مشبه للذوات، ولا منفى للصفات.

وسُئل ذو النون المصرى ما هو التوحيد؟ فقال: هو أن تعلم قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج، وصنعه للأشياء بلا علاج، وعلة كل شئ صنعه ولا علة لصنعه، وليس فى السماوات العلا ولا فى الأراضين السفلى مدبر غير الله، وكل ما تصور فى ذهنك فالله بخلافه.

وقال الجنيد: التوحيد علمك وإقرارك بأن الله فرد فى أزليته لا ثانى معه، ولا شئ يفعل فعله.

وقال أبو عبد الله: الإيمان تصديق القلوب لما علمه الحق من الغيوب.

وقال أبو العباس السيارى عطاؤه على نوعين: كرامة واستدراج، فما أبقاه عليك فهو كرامة، وما أزاله عنك فهو استدراج، فقل: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى.

وقال سهل بن عبد الله التسترى: ينظر المؤمنون إليه تعالى بالأبصار، من غير إحاطة ولا إدراك نهاية.

وقال أبو الحسن النورى: شاهد الحق القلوب، فلم ير قلباً أشوق إليه من قلب محمد ﷺ، فأُكرم بالمعراج تعجيلاً للرؤية والمكالمة.

وقال أبو عثمان المغربى يوماً لخادمه محمد: لو قال لك أحد أين معبودك، فماذا تقول؟ قال أقول: لم يزل، قال: فإن قال: أين كان فى الأزل، فماذا تقول؟ قال أقول: حيث هو الآن. يعنى أنه كما كان ولا مكان، فهو الآن كما كان، قال: فسره منه ذلك، ونزع قميصه وأعطاه إياه.

وسُئل أبو عثمان المغربى عن الخلق فقال: قوالب وأشباح، تجرى عليهم أحكام القدرة.

وقال الواسطى: لما كانت الأرواح والأجساد قامتا بالله وظهرتا بالله لا بذواتها، كذلك قامت الخطرات والحركات بالله لا بذواتها، إذ الحركات والخطرات فروع الأجساد والأرواح.

وقال أبو سعيد الحزاز: ومن ظن أنه ببذل الجهد يصل إلى مطلوبه فَمُتَعَن، ومن ظن أنه بغير الجهد يصل فَمُتَمَن.

وجاء رجل إلى ذى النون المصرى يقول: ادع الله لى، فقال له: إن كنت قد أيدت فى علم الغيب بصدق التوحيد فكم من دعوة مجابة سبقت لك، وإلا فإن النداء لا ينقذ الغرقى.

وسئل ابن شاهين الجنيدى عن معنى "مع" فقال: لها معنيان، مع الأنبياء بالنصرة والكلاءة، قال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ طه ٤٦، ومع العامة بالعلم والإحاطة، قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ المجادلة ٧.

وسئل ذو النون المصرى عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ طه ٥، قال: أثبت ذاته ونفى مكانه، فهو موجود بذاته، والأشياء موجودة بحكمه كما شاء سبحانه.

وقال الإمام جعفر الصادق: من زعم أن الله فى شئ أو من شئ أو على شئ فقد أشرك، إذ لو كان فى شئ لكان محصوراً، أو كان من شئ لكان محدثاً، أو لو كان على شئ لكان محمولاً.

وقال الجنيد: التوكل عمل القلب، والتوحيد قول القلب.

المنكرون لأقوال أئمة الطريق

هذه عبارات من سبقت لهم العناية، وإنما يذوق حلاوة معناها أهلها، ممن سبقت لهم من الله الحسنى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ هود ١٢٠، وإن كان معنى الآية يشير إلى ما كان يحصل لرسول الله من الحزن ـ عند إنكار قريش وتكذيبه ـ رحمة بهم. ولكن نذكرها هنا لإقامة الحجة، على أن تلك العبارات يزداد بها أهل الإيمان الكامل يقيناً،

وينكرها من سجل عليهم القضاء البعد والقطيعة، نعوذ بالله، وهم لا يخفون علينا بعد أن بين الله لنا أوصافهم وحذرنا منهم، وهم الآن كثير لضعف أهل الحق، وسيأتى وقت ـ وهو قريب ـ يظهر الله أهل الحق، ويعيد لنا ما كان لسلفنا من القوة والتمكين فى الأرض، ولديها أهل النفاق ـ الذين يجاهرن اليوم بالاعتداء على الدين ـ يسارعون إلى التمسك خوفاً من قوة الحق ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ يوسف ٥٢.

وما تقول فى عقيدة من يدعى الإسلام وهو يعتدى على أخيار الله، محتجاً بكلام من لا حجة لهم ممن قال الله فيهم: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ الفرقان ٤٤، وقال سبحانه: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ الكهف ٥١.

ما تقول فى عقيدة من يقول: أنا أبحث بحثاً علمياً والدين والعلم مختلفان. وهو يجهل حقيقة العلم لأنه يجهل روح الدين. الإسلام لا يعادى العلم، لأن الإسلام وضع الحكيم العليم، الذى بين الحقائق كما هى، وكل ما يخالفه فهو جهل وضلال، وإن كان عند أهل النفوس اللقسة علماً.

العلم هو تصور النفس رسوم المعلوم، ومتى تصورت النفس رسوم المعلوم، صار المعلوم بين عينى العالم، لانبلاج أنوار الغيب المصون وإشراقه على جوهر النفس، فبين لغيره بالعبارة معانى المعلوم، ليتمثلها خيال السامع لا بقدر المعلوم، فإن كان السامع ممن منحهم الله نفساً نورانية، تقبل العلم الحق واطمأن قلبه. وإن كانت نفسه خبيثة، أنكر ومال إلى مجالسة أهل الكفر والضلال، فإن استدرجه الله تعالى بقوة أهل الباطل وضعف أهل الحق، جاهر بالضلال، وإن أظهر الله أهل الحق أظهر أنه من أتباعهم، وأخفى فى نفسه ما الله مبديه، وهو النفاق.

أسأل الله أن يحفظنا من النفاق، وأن يؤيدنا بروح حتى يكون المجاهر منافقاً، ثم يظهر

الله ما فى نفسه فيعذبه الله فى الدنيا بأيدينا، وفى الآخرة بنار جهنم، أو يتوب عليه ويهديه منة، والله ولى المتقين.

العقيدة هى الحُجة

بينت لك الأصل الأول الذى هو العقيدة، وهو أصل الأصول بل هو رأس مال المؤمن، وما زاد عليه فهو ربحه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ النساء ١١٦، والعقيدة الحقة مأخوذة من الكتاب والسُنة وبيان الأئمة، وقد أوردت ما قاله أئمة الطريق رضى الله عنهم فى العقيدة، وفيه الكفاية لمن جعل الله لهم نوراً فى قلوبهم.

ومن طلب تحصيل العقيدة بالبراهين المنطقية والأدلة العقلية، حُرم الإيمان الحق، لأن الله تعالى علىٌ عظيم، لا تدركه الأبصار الباحثة. وقد أخبرنا سبحانه وتعالى عن نفسه فى آيات من القرآن كثيرة، وأقام الحجة البالغة بما بينه سبحانه فى خلق السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما، مما شاهدته العقول واطمأنت به القلوب. على أن كل شئ خلقه الله للإنسان مما أحاط به من أفلاك وأملاك وأجواء وأرجاء ومعادن ونباتات وحيوانات، وهذه هى الحجة التى أسجدت القلوب لعلام الغيوب، وبقيت المحجة وهى الأصل الثانى الذى هو العبادة التى تربط العبد بربه، قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ آل عمران ١٠٣، وتتمثل فى الطريقة المستقيمة.

❊ ❊ ❊

الطريقة المستقيمة

الطريقة هى المحجة

هى أقرب طريقة توصل إلى المطلوب، وكل الطُرق الأخرى منحرفة أو معوجة أو منقطعة لا توصل السالك عليها، وتلك الطريقة المستقيمة محصورة فى قول رسول الله ﷺ وعمله واقراراته، وقد بينها أئمة الهدى بالقول والعمل والحال.

وطالب الله تعالى يجب عليه أن يبحث عن مرشد يصحبه، هو أشبه الناس برسول الله ﷺ، وبعد أن يظفر به يجب عليه أن يسلم له فيما علم لا يخالف كتاباً ولا سُنة، فإن الحرام بين والحلال بين، ومن حجب ممن يتعدى حدود الله ويخالف أحكامه، ووصايا رسول الله ﷺ فارق السُنة، ومال عن الطريقة المستقيمة، ولا حجة له.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ الأنعام ١٥٣.

والواجب علينا أن نتمسك بالسُنة تمسُكاً يمنحنا ربنا الفوز به والوصل إليه، ونيل ما وعدنا سبحانه عنده، قال سبحانه: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ الأعراف ٤٤.

بم تصلح الطريقة؟

أولاً تلقى عقيدة التوحيد

تلقى عقيدة التوحيد من الكتاب والسُنة والسماع من المرشدين الكاملين، لا من أهل الجدل والمعارضة والإنكار، الآخذين بأصول اليونان ـ التى هى الأشكال المنطقية ونتائجها ـ وما لم يكن عليه السلف الصالح، بل يترك الجدل مرة واحدة، قال تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ الزخرف ٥٨.

ثانياً الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

المسارعة إلى عمل ما أمر الله بقدر الطاقة، والبعد عما نهى عنه جملة، فإن الطاعة مقيدة بالطاقة، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ التغابن ١١، وكل تكليف ملاحظ فيه الاستطاعة، وأما ما نهى الله عنه فيترك جُملة واحدة، فإن الله ما نهى إلا عن كل قبيح لا خير فيه.

ثالثاً أن يكون لكل فرد فى المجتمع حق عليه

أن ينزل الناس من قلبه بقدر ما أنزلتهم الشريعة، فترى معلم الخير والوالدين فى أرقى

المقامات من قلبك، تعظيماً واقتداء ومحافظة على الاتباع وبراً.

وترى إخوتك من والديك أحب الناس إليك، ويليهم إخوتك من والدك أو والدتك، ثم ترحم أبناءك وتجتهد فى تربيتهم تربية تصلح بها حالهم فى الدنيا والآخرة، ثم تحسن صُحبة زوجتك وخصوصاً إذا تزوجت أكثر من واحدة.

ثم تُنزل الناس بحسب منازلهم، من جار أو قريب أو شريك أو عامل عندك، من الرحمة وحفظ العهد ورعاية جناب الله تعالى، حتى يكون المجتمع الإسلامى كالجسد الواحد، لكل فرد حق عليك بقدره شرعاً.

رابعاً أن يؤدى ما عليه لغيره

وهنا ملاحظة أحب أن يكون السالك عليها، وهى أن يسارع فى تأدية ما عليه لغيره، ولا يطالب الناس أن يقوموا بما عليهم له، طمعاً فيما يناله من الأجر يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وفى هذا المقام تتفاوت المقامات، فإن الله سبحانه عندما أثنى على رسول الله ﷺ لم يثن عليه لأنه كثير الصيام أو القيام، وإنما أثنى عليه بالأخلاق الكريمة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم ٤، بغير التنوين، أى على خلق الله، وبالتنوين فى رواية حفص يعنى على خلق موصوف بالعظمة عند الله تعالى، وهو أكمل جمال للأخلاق. ولا تسو أيها المريد بالأخلاق شيئاً، فإن الأخلاق هى رعاية جانب الله تعالى، وقهر دواعى البشرية من الحظ والهوى والطمع، وبذلك يكون المريد أشبه بالملائكة المقربين، بل أفضل منهم لأنه مجاهد، والملائكة أرواح نورانية ليست فيهم عناصر تقتضى المجاهدة، قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ النساء ٩٥.

* * *

الشريعة والحقيقة طريق واحد

أدعياء الطريق وتأويلاتهم

إن الأصول الشرعية يجب على السالك فى طريق الله أن يرعاها حق رعايتها، فلا يحيد عنها شعرة، والسلوك إلى الله تعالى لا يمكن أن يكون من غير الطريق الشرعى، ولما كانت هذه النقطة من أدق النقاط وأصعبها فهماً على عقول العامة، خصوصاً فى هذا الزمان المظلم الذى تفشت فيه البدع، واشتدت وطأة المضلين والجاهلين.

فقد رأينا أن نعرض للكلام فيها، ونفصل ما خفى منها حتى تستبين الحُجة فيها، وتتضح المحجة وينجلى ذلك الستار الموهوم الذى أسدله أدعياء المتصوفة وقاطعوا طريق الله تعالى على أنفسهم، لتضليل البسطاء وإغواء الأبرياء، والتحايل على العيش من وراء هذا الافتراء والبهتان.

يحاول أولئك القوم أن يُفهِموا السذج من الناس أن الشريعة والحقيقة مختلفتان، ومتناقضتان فى لفظها وجوهرهما وأنها طريقان متباينان، لكل طريق منهما أصول وقوانين، وأن كلا منهما انفردت بأهلها ومعتنقيها عن الأخرى، ولذلك يحتمون على من سار فى طريق الحقيقة أن يترك كل ما يتعلق بالشريعة، لأنه يسير بزعمهم فى طريق أعلى وأسمى من تلك الطريق، لا يجمل بمن رقى أن يتنزل، ولا بمن تغلل فى بطن الدار وجالس أهلها؛ أن يعود للوقوف على بابها.

الرد على هذه التأويلات

وجهل أولئك المغرورون أن الشريعة والحقيقة طريق واحد، بدايته الأولى ونهايته الثانية. وأن الحقيقة من الشريعة، كالقصر المشيد العالى من الأساس المتمكن فى أعماق الأرض، فلو لم يبق هذا الأساس ويحكم بناؤه لما قام ذلك القصر ولما دام بقاؤه. وإنه وإن كانت الحقيقة بيتاً والشريعة بابه، فإن البيوت لا تؤتى من غير أبوابها، وإن الذى يدخل البيت من

غير الباب إنما هو لص مريب، لا يُنظر إليه بعين الثقة ولا الاحترام.

ولقد بين العلماء العارفون بالله وهن تلك الدعاوى الباطلة، التى يضلل بها أولئك الأدعياء عقول الناس، يقذفون بهم فى هوة مخالفة الشريعة والخروج على أوامرها، حتى إذا ما انقضت تلك الحياة الدنيا ـ وسرعان ما تنقضى ـ وجاء يوم الحساب والعقاب: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ البقرة ١٦٦-١٦٧.

مكائد أدعياء الطريق وحيلهم

وإليك بعضاً من مكائدهم وحيلهم التى ينصبون شراكها لإيقاع البسطاء:

أول ما يبدوا لك من أحوالهم جرأة على الشريعة، وسوء أدب مع الله تعالى، وأمن واستهتار ينبئك بأن نفوسهم لقسة لم تتطهر من رجس الشهوات، ولا يوجد فيها القابل الذى يقبل الحقائق ويرضخ لها، وإذا ما أنكر عليهم منكر بعض أمورهم المخالفة للشرع الشريف، قالوا كذباً: إن حرمة ذلك فى العلم الظاهر، وإنا أصحاب العلم الباطن وهو فى علمنا حلال، وإن الناس يأخذون من الكتاب والسُنة، أما نحن فنتلقى من صاحبها محمد ﷺ، فإن أشكل علينا ما نتلقاه منه رجعنا إلى الله تعالى بالذات. وإنا بالخلوة وهمة شيخنا نصل الى الله، فتكشف لنا العلوم، فلا نحتاج إلى كتاب وسُنة، وإن الوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا برفض العلم الظاهر والشرعى، وإنا لو كنا على الباطل ما حصلت لنا تلك الكرامات العلية والأحوال السنية من مشاهدة الأنوار وكشف الأسرار.

الرد على هذه المكائد والحيل

كل ذلك ونحوه أكاذيب وترهات، بل هو إلحاد وضلال، إذ فيه ازدراء بالشريعة السمحاء وإبطال لحكمة تشريعها، وإن الشيطان لم ينل من المسلمين ما ناله الفساق من المدعين

التصوف بالباطل، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ البقرة ٢٨٢، والتقوى هى العمل بعلم الشريعة، لأن الأخذ بالعزيمة من شأن الأتقياء، ومن خالف الشريعة صار غوياً لا تقياً، ومثله يعلمه الشيطان الطمع فى الأموال وإباحة الأعراض والكيد لمخالفيه والمنكرين عليه.

الذين يحصلون علم الشريعة و لا يعملون به

كما أن الذين يحصلون علم الشريعة ولا يعملون به هم شر الخلق، لأن العالِم إذا استعان بعلمه على نيل الدنيا من الملوك والأمراء، بل ومن المتسلطين من غير المسلمين، بأن يواليهم ويودهم ويتردد عليهم، سلب الله منه بركة العلم، وكان العلم حُجة عليه يوم القيامة.

وروى الإمام أبو عمر يوسف بن عبد البر الأندلسى بسنده فى كتابه "جامع بيان العلم" عن أبى هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة. رجل استشهد فى سبيل الله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال هو قارئ، وقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيه لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار) رواه مسلم.

وهذا الحديث فيمن لم يُرد بعلمه ولا عمله وجه الله، وقد قيل فى الرياء إنه الشرك الأصغر.

المعرفة بالله تعالى

الرضا هو المعرفة بالله تعالى

أهل الطريق أسسوا طريقهم إلى الله تعالى على آيات كثيرة من القرآن، وأحاديث صحيحة وصلت إليهم بسند عالٍ صحيح، من تلك الأحاديث ما رواه الإمام أحمد بن حنبل بسنده قال رسول الله ﷺ: (ذاقَ طعمَ الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ ﷺ نبياً)، هذا الحديث الصحيح ركن من أركان الطريق الذى أخذ به أهل العلم بالله تعالى، لأن الذوق المنبعث عن الرضا هو المعرفة بالله تعالى، والمعرفة أسكنها سبحانه قلب من أحبه من العباد، ولا شئ أجل وأعظم من ذلك النور.

حقيقة المعرفة حياة القلب وموت النفس

وحقيقة المعرفة حياة القلب بالمحيى سبحانه، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ الأنعام ١٢٢، وقال جل شأنه: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ يس ٧٠، وقال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ النحل ٩٧ وقال تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الأنفال ٢٤، فمن ماتت نفسه بعدت عنه دنياه، ومن مات قلبه بعد عنه مولاه.

فأهل طريق الله تعالى رضى الله عنهم؛ لما ماتت نفوسهم بعدت عنهم الدنيا وبعدوا عنها، ولما قامت بحكم الحياة الدائمة بالله قلوبهم الطاهرة؛ قربت من الله، وقرب بسره المقدس منها، فهم ودائع مدد الله وخزائن أسراره، إليه يرجعون وبه سبحانه وتعالى يهيمون، وعليه يتوكلون وإلى غيره لا يلتفتون، وكل ما يحمل على أكابرهم وأصاغرهم، خفيهم وظاهرهم، من الشئون التى تمس زهرة هذه الدنيا الفانية بحقيقتها، خلاف ما حملها عليهم الكذابون وأضافها إليهم الباغون.

* * *

مشارب أهل الطريق

وهم رضى الله عنهم على مشارب وأطوار، فمنهم رب المظهر القهار، ومنهم المتحلى بالتجرد عن الآثار، ومنهم الملتحف برداء التعزز والوقار، ومنهم المتطيلس بطيْلسان الذل لله والانكسار، ومنهم المغلوب ومنهم المجذوب ومنهم المتمكن الجامع، ومنهم السيف القاطع ومنهم شرعى الانبلاج، ومنهم البحر العجاج.

وكلهم ثقيلون على أهل النفوس الملوثة بأغراضها، والقلوب المملوءة بأمراضها، وهم غرباء عن جنس أولئك، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام عنهم: (من يبغضهم أكثر ممن يحبهم) لأنهم يخالفون ما عليه النفوس وأربابها. والمقاصد الفاسدة وأصحابها. وقد روى: (من أحب الله فليتخذ للبلاء جلباباً)، فالابتلاء لأحباب الله تعالى لابُد منه، ولكن لهم الغلبة على من عاداهم، والنصرة على من ناوأهم، قال سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ المجادلة ٢٢ ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ المائدة ٥٦، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يونس ٦٢.

وكل أهل زمان لهم من الله حظهم بقدر احترامهم لأهل الوقت من أهل الله، وبقدر محبتهم لهم وحسن ظنهم بهم وصدق موالاتهم، وخالص الاجتماع لمناهجهم، وسلوك طريقهم، والتخلق بأخلاقهم، مع إجلالهم وإعظام شأنهم. والعكس ـ العياذ بالله ـ بالعكس، فإن إهانة أولياء الله، والكذب عليهم، وإهمال حقوقهم وهضم مقاديرهم، ينتج عن زيغ القلوب وخبث النفوس واستخفاف لأوامر الله تعالى، ومتى عمت هذه الأوصاف القبيحة قوماً من المسلمين، ترى الخزى والفشل يعمهم والذل يكتنفهم ويدعون فلا يستجاب لهم.

لأن هؤلاء القوم هم أمناء النبى ﷺ فى الأمة، وهم العلماء بالله حقاً، العارفين بسُنته عليه الصلاة والسلام صدقاً، المتمسكون بها الناصرون لها، المفرغون للأخلاق المحمدية فى القلوب، الجاذبون ألباب الأمة إليه ﷺ، هم نقطة الجمع للقلوب على أمر الله وسُنته ونبيه، وإعزاز كتابه وتعظيم أمره وتوقير أحبابه، فمتى أهملهم أهل زمانهم انفكت جماعتهم وتفرقت قلوبهم، وهنالك فلا عز ولا مُكنة، حيث يسلط الله عليهم عدوهم، وينزع المهابة

عنهم. نسأل الله تعالى أن يمنحنا الأدب فى جانب أوليائه رضى الله عنهم، وأن يوفقنا للاهتداء بهديهم، ويعلق قلوبنا بمحبتهم، ليسلكوا بنا طريق الله القويم، وصراطه المستقيم.

* * *

الباب الرابع

أساس الطريق

أولاً: تحصيل العلم

العلم فى الكتاب

أول واجب ينبغى على من أراد السلوك فى طريق الله تعالى تحصيل العلم، إذ هو أساس العقيدة وروح العبادة ومعلم الأخلاق والرائد فى المعاملات، وهذه الأربعة هى أصول الدين، ذكر الله تعالى العلم فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم، تنبئ عن شرفه وتعظيمه، ورفع سبحانه قدر العلماء حتى عطفهم على نفسه، وخصهم بخشيته والتعقل عنه، فقال سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ آل عمران ٧، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فاطر ٢٨، وقال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ العنكبوت ٤٣، وقال جل شأنه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الزمر ٩.

العلم فى الحديث

وكذلك حثنا رسول الله ﷺ على طلب العلم، حتى جعله فريضة على كل مسلم ومسلمة، وذكر فى تعظيمه وبيان قدره أحاديث كثيرة نكتفى منها بهذا القدر:

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما عبد الله بأفضل من فقهٍ فى دين الله، ولفقيهٌ واحدٌ أشدُ على الشيطان من ألف عابد، ولكل شئ عماد، وعماد الدين الفقه).

وعن معاوية سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنس فى الوحشة، والصاحب فى الغربة، والمحدث فى الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة وأئمة، تقتفى آثارهم ويقتدى بأفعالهم وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة فى خلتهم وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس وحتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة، والتفكر فيه يعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمامُ العمل والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء).

من ذلك تعلم أن تحصيل العلم أساس السلوك فى طريق الله تعالى، إذ هو النور الذى يهدى إلى الرشد، ويكشف للسالك عما قد يعترض طريقه من عقبات ومهاوٍ.

ما المقصود بالعلم؟

ولسنا نقصد بالعلم تلك القشور التى أضاع فيها العلماء أعمارهم، وهم لا يزدادون بها إلا بُعداً عن الله تعالى، ومسارعة فيمن حكم القرآن بالكفر على من وادهم، أو تزلفاً لأصحاب الجاه والمناصب، رضاً بالحياة الدنيا واطمئناناً بها.

ولا نقصد علوم المادة والفلسفة الخرافية التى أضلت أهلها، وجعلتهم يتخذون المادة إلهاً معبوداً، ويكفرون بالله ويحقرون دينه، فإن هؤلاء وهؤلاء حكم عليهم القرآن بقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ الروم ٧.

وإنما نقصد بالعلم، علم المعرفة بالله تعالى الذى يهدى القلوب إلى معرفته، والعقول إلى توحيده والأرواح إلى محبته، والأجسام إلى الفناء فى عبادته والقيام بأمره، فذلك هو العلم

المفروض على المؤمنين جميعاً، لأنه قوام العقيدة وروح الإيمان، ومن حرمه أو أهمل فى طلبه فقد حرم السعادة والخير.

العالم الربانى يهدى إلى الطريق

ولن يستطيع السالك أن يخطو فى طريق الله تعالى خطوة؛ إلا على يد عالم ربانى منحه الله علم المعرفة به، وكاشفه بأسرار حكمته وبدائع قدرته، حتى أصبح دالاً به عليه، واقتدر على بيان الحقائق بلسان الحكمة المؤثرة على النفوس.

أما أولئك الجهلاء، الذين يظنون أن السلوك إلى الله تعالى بالعبادة والعمل ـ دون العلم ـ فهم محجوبون ناكبون عن الطريق، لأن العمل من غير علم المعرفة يجعل القلب قاسياً، والقلب القاسى بعيد عن الله تعالى، ولو عبد الله ألف سنة، قال رسول الله ﷺ: (فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم) وقال عليه الصلاة والسلام: (قليل العلم خير من كثير العبادة).

فعليك أيها السالك أن تسعى إلى العالم الربانى، لتتلقى منه علم المعرفة بربك، بعد أن تعرف نفسك، حتى ينتهى بك السلوك إلى الوصول.

ثانياً: العمل بالعلم

العلم وسيلة للعمل

العلم مقصد عظيم، وكل ما سواه من المال والبنين والعافية والزوجة؛ إنما هو وسائل لتحصيل العلم الذى هو المقصد الأعظم، والعلم وسيلة للعمل فالعمل بالنسبة للعلم مقصد عظيم، والعلم له وسيلة. والعمل وسيلة للتقرب من المعلوم جل جلاله، ولنيل رضوانه. والتقرب ونيل الرضوان مقصدان عظيمان، ولكنهما وسيلتان لنيل شهود جمال الله تعالى. ونيل شهود جمال الله تعالى فوق العلم والعمل.

ترك العمل بالعلم خسران

والله جل جلاله لا يمنح ما عنده بمعصية، لأنه تعالى غنى عن العالمين، فالعمل بلا علم لا يُرفع، والعلم بلا عمل لا ينفع، والعمل والعلم بلا إخلاص لا يُقْبلان، والعالم إذا ترك العمل خاب فيه الأمل، لأنه قدوة العالم ومحل نظرهم، ومن علامات بغض الله تعالى للعلماء بالأحكام وبالدنيا وسياساتها أن يتركوا عمل القلوب، ويتهاونوا بعمل الجوارح، فتكون قلوبهم محلاً للحسد والهمم الشيطانية، واللمم البهيمية، يتقربون بما حصلوه إلى الظَلَمة والملوك ولو كانوا كفارا، ويستعينون به عندهم على نيل الخير العاجل.

وقد يكون العلم بالدنيا لدى العلماء بالدنيا سبباً فى سلب الإيمان ـ نعوذ بالله ـ لأنهم يعينون أهل القوة والمال والسلطان، ولأنهم يحسنون لهم أعمالهم ولا يخافون الله فيهم ويخافونهم، فإذا همَّ الظالم بعمل يخالف الله ورسوله أعانوه عليه خوفاً منه، ولم يخافوا من الله تعالى. أقول: يسلب بهذا العلم الإيمان من العالم بالدنيا؛ لأنه ينسى نفسه ويعتقد أنه عالم، والعالم فى الحقيقة هو الله، وكل من سواه متعلم منه سبحانه، فإذا نسى العالم نفسه وحكم لنفسه بالعلم؛ نسى الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ الحشر ١٩.

إذا خاف العالم من الموت ونسى يوم القيامة وسارع فى أعداء الله تعالى قائلاً: نخشى أن

تصيبنا دائرة، واقتدى به العالم فى هذا العمل ضل وأضل، فكان كالمرض المعدى وكان علمه شراً عليه. أعاذنا الله تعالى من مرض أهلك إبليس فظن لعلمه أنه خير من غيره وخالف أمر ربه. أما العالم بالله تعالى وبأيامه وبأحكامه وبحكمة أحكامه، فهو العلم الذى يهبه الله تعالى لمن يشاء من أحبابه، وهو العلم الذى ينفع الله به عباده.

العالِم الذى يعمل بعلمه

وهذا العالم لا يخالف علمه ما دام مؤيداً بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وعمله نجاة العالم أجمع، لأنه يعمل بعلمه عمل القلوب فيما بينه وبين ربه، ويعمل بعمله عمل الأجسام مخلصاً لله تعالى أمام إخوانه، فيكون له المقام العلى عند الله بعمل قلبه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ق ٣٧، صاحب القلب المتقلب فيما يقربه من الله تعالى، وصاحب البصيرة المشاهدة لآيات الله تعالى، فوق العالم العامل بجسمه لا بقلبه، لأنه عمل بقلبه عملاً قربه من الله تعالى، وعمل بجسمه عملاً أناله الله تعالى به فضله ورضاه ونفع به أهل عصره، كما قال سبحانه: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ الفرقان ٧٤.

العمل بحكم ما أنزل الله

الأساس الذى أسس عليه أئمة أهل المجاهدة طريقهم هو أساس واحد. وهو أن الحاكم هو الله، والحكم له سبحانه وتعالى ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ يوسف ٤٠.

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المائدة ٤٥، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ المائدة ٤٧، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المائدة ٤٤.

وحكم الله هو كتاب الله وكلام رسول الله ﷺ، لأن كلام رسول الله ﷺ هو حكم الله تعالى ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ الحشر ٧.

حُكم من حَكَم الذوق والحال والوجد

وقد جهل بعض الناس ممن لا علم لهم بالطريق، فظنوا أن أهل الطريق يحكمون الذوق والحال والوجد ولو خالفوا فى ذلك الشريعة. ومن يعتقد ذلك فى أهل الطريق فقد جهل مبادئهم، ومن جهل شيئاً عاداه، فإن الذوق قبس من نور اليقين، أى: هو فوق العلم، والحال ظهور أنوار اليقين على السالك المخلص حتى يكون متجملاً بجمال أهل الخشية والخوف من الله تعالى، والرغبة فيما عنده سبحانه، والوجد حضور بالقلب والسر مع الرب جل جلاله، ولا يمن الله بتلك المعانى على من خالفوا حكمه سبحانه، ومن حَكَمَ الذوق والحال والوجد وخضع لحكمهم فقد عبد غير الله، وما عند الله لا ينال بمعصية.

واجب الوقت

إذا انقاد أهل الطريق بذوقهم وحالهم ووجدهم، فليس ذلك انقياداً لها، وإنما انقياد لواجب الوقت الذى أوجبه الله على السالك، مسارعة إلى تنفيذ حكم الله تعالى الذى تلقاه عن الله، إما صريحاً من كتابه العزيز، أو من عمل وكلام رسول الله ﷺ، وعمل أئمة الهدى من الصحابة والتابعين، أو استنباطاً من الكتاب والسنة، فإذا اضطر إلى الحكم على أمر ولم يستبين له؛ رفعه إلى أعلم منه، فإذا خفى عليه نظر بعين المخافة من الله، وفكر فيه بقلب ملؤه الخشية من الله، فإذا ظهر فيه مصلحة وخير حكم بإباحته، وإن ظهر له فيه مفسدة ومضرة حكم بكراهته، فإن روح الشريعة تقتضى بأن كل ما هو خير مباح، فهم فى ذوقهم وحالهم ووجدهم مقهورون بحكم الله تعالى، وكل ذوق أو وجد أو حال يخالف حكم الله تعالى يفرون منه ويتبرءون منه.

ولعلك تنكر قولى: واجب الوقت. فأبين لك هذا الأمر: أخَّر ﷺ صلاة العصر إلى الغروب فى غزوة من الغزوات وقال: (حبسونا عن الصلاة الوسطى فملأ الله قبورهم ناراً).

وجلس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى المسجد يذكر أصحابه بأمر فأخر صلاة

العصر، فقال المؤذن: الصلاة يا أمير المؤمنين، فقال: نحن فى صلاة. فقد يقتضى الوقت طهارة القلب فيسارعون إلى طهارة القلب، فإن كل عمل لم يكن صادراً عن قلبٍ مردود.

العلماء بالدنيا الجهلاء بالآخرة

ولا عجب فإن علماء الدنيا أعانوا الظلمة والكفرة على مفاسدهم وأباطيلهم، وأضلوا العامة بمسارعتهم إلى أعداء الله تعالى والمخالفين لسنة نبيه ﷺ قال الله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ المائدة ١٣، هذا لأن جميع العالم يعتقدون أن العلماء هم الأئمة وهم النور ويقبلون منهم مالا يقبلونه من غيرهم، وهؤلاء ليسوا بعلماء بالله وبأيامه وبأحكامه وبحكمة أحكامه ولكنهم علماء بالدنيا، وبالوجوه التى يحصلونها بها، قطع حب الدنيا قلوبهم عن مشاهدة الآيات فى الكائنات، وأعمى الحسد والمنافسة فى الدنيا وحب الشهرة بها أبصارهم عن السياحة فى ملكوت الله، فعظموا ما حقر الله، وأهانوا ما عظم الله، فتراهم أذلاء.

العلماء بالله

أما العلماء بالله تعالى، فإنهم يسارعون إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السماوات والأرض أُعدت للمتقين، فيغمرون الأنفاس بما يحبه الله مراقبة لله وخشية من عظمته، وعملاً بما يحبه ويرضاه، فيهدى الله بهم أهل عصرهم، فالعَالِم كالنجم المشرق فى الليل المظلم كما قال ﷺ: (أكرموا العلماء فإنهم سرج الدنيا ومصابيح الآخرة). قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ التوبة ١٢٢، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فاطر ٢٨، وأهل الخشية قليل، ومتى أظهر الله رجلاً من أهل الخشية عم نور اليقين أهل عصره. وأشر الناس يوم القيامة رجلاً يبيع دينه بدنيا غيره، فلينتبه أدعياء العلم وليتقوا الله فيما خولهم من العلم بأحكامه سبحانه فإن تقوى الله بها نيل العلم بالله، وصحبة العلماء الربانيين، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ البقرة ١٨٢، ومن خاف غير الله أبعده، ومن طلب الله وجده، فدله على من يدله عليه.

أهل الطريق يهتدون بهدى السلف الصالح

إن الله سبحانه وتعالى قد أكرم أهل الطريق بما هو كمعجزات أنبياء الله السابقين على نبينا وعليهم الصلاة والسلام وكيف يستجيب الله تعالى لمن لم يستجب له أو يكرم بآياته من خالف حكمه! فأساس طريقهم رضى الله عنهم العمل بحكم الله تعالى ومخالفة كل ما خالفه، حتى أنهم يخالفون كشفهم الصريح ويرجعون إلى حكم الله تعالى وأئمتهم أصحاب رسول الله ﷺ.

وكان الرجل منهم رضى الله عنهم إذا حكم بحكم وظهر له حكم الله تعالى قال: أخطأتُ ورجع إلى الحق. فإنما أهل الطريق أتباع لأصحاب رسول الله ﷺ ومقتدون بهديهم رضى الله عنهم جميعاً، وكيف يتخيل متخيل أن قوماً أقبلوا على الله تعالى بالكلية يعتقدون أنهم غير معصومون يحكمون ذوقهم وحالهم ووجدهم ويتركون حكم الله تعالى؟! والحق فوق الخلق عند غيرهم فكيف عندهم، فهم مع الحق وإن شهدهم من جهل حالهم مخالفين، ولذلك فإنك تراهم يطيعون فقيراً مسكيناً، وتذل له نفوسهم الكبيرة، وتخشاه قلوبهم ويبذلون له نفوسهم ونفائسهم ويعادون لأجله الملوك والجبابرة، ما ذلك إلا لأنهم أحبوا أهل الحق ولو كانوا أذلاء فقراء مهانين مرذولين فى أعين الناس. ولو أنهم لم يكن الحق مقصدهم الأول لما أذلوا أنفسهم العزيزة لفقير مسكين سمعوا منه الحكمة وفقهوا عنه العظة وتعلموا منه الخشية من الله، وكم من سيد فى قومه عزيز فى سربه ذل لفقير مسكين!! واتخذه سيداً وإماماً يخدم نعليه ويذل بين يديه ويسمع له ويطيع، مع أن الملوك تسترضيه فلا يرضى عنهم، وما ذلك إلا للحق سبحانه.

مـا اختلاف الطريق؟

مَـا اختلافُ الطـريق والقصدُ واحـد ... والـصراطُ الـسَّـــوِيُّ للـمُـتَـــواجِــد

ذَا لأنَّ الـنفـــــوسَ مختـلفـــاتٌ ... كلُّ نفـسٍ لَهـــا سبـيلٌ وشـــاهِــد

والـــرجـــالُ الأفـــرادُ فـــوق صراطٍ ... بَـدْؤُهُ الكـشف للمـرادِ الـوَاجِـد

مِنْ ﴿أَلَسْتُ﴾ شربُـوا طهـوراً مُـداراً ... أسكـــرَتْهُم لِم يُفْلِتَـنْهُم مُعَـــانِــد

أفـــردوا الله بـــالـيقـين وفـــرُّوا ... مِـن سِـــواهُ إلـيه والفـضلُ وَارِد

من لَـدَى البـــدءِ ووُجِهُـــوا بجـمالٍ ... يَجـذبُ الـــرُّوحَ للـولىَّ الـوَاحِـد

واخـتلافُ الـطـريقِ فى السيرِ يُنبِـى ... بـــاخـتلاف الـنفـــوسِ بل والمَـــوَارِد

والمـرادُ المحبـوبُ أفـردَ بـالقصـدِ ... عـليّـــاً هُـــوَ إلالَهُ الـــوَاحِـــد

والنفـوسُ المَـرْضَـى تـسيرُ الهُـوَيْنـا ... للأيَـــادى أو للعَـطَـــا والمـــوائِـــد

أو لأجـــرٍ تـسعَـــى ونـيلِ حـظـوظٍ ... فى جنـــانِ الـنعيـم بـين الـــوَلائـــدِ

بـين بـــاكٍ مـن خـــوف نـــارٍ وراجٍ ... جـنَـــةَ الخُلْـدِ فى عَـنَـــاءٍ يُجَـاهـد

بـين زُهَـــدٍ فـيما يـــزولُ لقـصـــدٍ ... فـــوزه بـــالقبـــولِ تجـده عـابـد

ذَاكَ سرُّ الـتفـريـد والـوجهُ قـصـدى ... من ﴿أَلَسْتُ﴾ وطـالبُ الغيرِ جَـاحِـد

أفـــردَ المُجْـتَـبَـــونَ وجهـــاً علـيـــاً ... بـــالـيقـينِ القـــوىّ محـــو العَـــوَائِـد

شـاهَـدُوا بـالـيقـينِ فى الكـون نـوراً ... كـــان بـــدءاً يـــراهُ كلُّ مُـشَـاهِـد

لَمْ تَعُقْهُـمْ عـنـــاصرٌ وَحُـــدُودٌ ... كلُّ فـــردٍ لله بـــاللهِ عَـــائـــدِ

ظَلَّلَـتْهُمْ أنـــوارُ شمـــسِ الـتَّجَلّىَ ... سَتَّرتهم عـنهم فبُـشْرَى لِـصَـاعِـد

نـاولـتهم يـد العـنـايـة راحـاً ... أسعـدتهم بـنيل كل المقـاصـد

قَـصْـــدُهُـمْ واحـــدٌ إلـيه أنَـــابُـــوا ... بَلْ لَهُ أَسْلَـمُـــوا بقَلْـبٍ وَاجِـــد

تم بحمد الله

❊

الفهرس

الباب الأول

الطريق وآدابه ٥

حكمة الخلق ٥

الإخلاص فى العبادة ٥

بادرة ما يلوح لم تفكر فى نفسه وفيما حوله ٦

التفكر فى سوابغ النعم ٧

العبادة دليل على محبة الله ٧

الطريق ٨

تعريف الطريق ٨

الطريق وما أدراك ما الطريق ٩

كثائف الجهالات على الطريق ٩

بم ساد أهل الطريق ١٠

منازلات المريدين ١٠

تفاوت همم المريدين ١١

أحوال تلك المشاهد ١٢

آداب الطريق ١٣

عم يتخلى القلب وبم يتحلى ١٣

أولاً: التزام أحكام الشرع ١٣

ثانياً: استئصال المعاصى القلبية ١٣

دلالة المعاصى القلبية من الحديث ١٥

الجوارح المقابلة لأبواب الجنة والنار ١٧

١ فتح أبواب الجنة ١٨
٢ فتح أبواب النار ١٨

الباب الثانى

مراحل الطريق ١٩
ما يجب أن يحصله المسافر فى طريق الله ١٩
أولاً: الاستعداد قبل السير ١٩
ثانياً: أن يحصل فقه الشريعة عقيدة وعبادة ٢٠
١ علم التوحيد ٢٠
٢ علم العبادات ٢٠
ثالثاً: أن يحصل من القرآن ما يكفيه ٢١
رابعاً: أن يجاهد نفسه فى ذات الله تعالى ٢٢
الحث على اتباع سنة خير المرسلين ٢٣
اتباع السنة واجب لصحة الإسلام ٢٣
ما المراد بالسنة ٢٤
فرائض الإيمان وشعبه ٢٤
فرائض الإيمان ٢٤
شعب الإيمان ٢٥
البحث عن المرشد الدال على الله ٢٦
أوصاف المرشد ٢٧
أخذ العهد على المريدين ٢٨
البيعة فى الكتاب والسنة ٢٨
الجنة وفاء من الله بعهده للمؤمنين ٢٨
كيفية اخذ العهد ٣٠

الباب الثالث

أصول الطريق ٣١

العقيدة ٣١

العقيدة هى أصل الأصول ٣١

العقيدة من أقوال أئمة الطريق ٣١

المنكرون لأقوال أئمة الطريق ٣٣

العقيدة هى المحجة ٣٥

الطريقة المستقيمة ٣٥

الطريقة هى المحجة ٣٥

بما تصلح الطريقة؟ ٣٦

الشريعة والحقيقة طريق واحد ٣٨

أدعياء الطريق وتأويلاتهم ٣٨

الرد على هذه التأويلات ٣٨

مكائد أدعياء الطريق وحيلهم ٣٩

الرد على هذه المكائد والحيل ٣٩

الذين يحصلون علم الشريعة ولا يعملون به ٤٠

المعرفة بالله تعالى ٤١

الرضا هو المعرفة بالله تعالى ٤١

حقيقة المعرفة حياة القلب وموت النفس ٤١

مشارب أهل الطريق ٤٢

الباب الرابع

أساس الطريق ٤٣

أولاً: تحصيل العلم ٤٣

العلم فى الكتاب ٤٣
العلم فى الحديث ٤٣
ما المقصود بالعلم ٤٤
العالم الربانى يهدى إلى الطريق ٤٥
ثانياً: العمل بالعلم ٤٦
العلم وسيلة للعمل ٤٦
ترك العمل بالعلم خسران ٤٦
العالم الذى يعمل بعلمه ٤٧
العمل بحكم ما أنزل الله ٤٧
حكم من حكم الذوق والحال والوجد ٤٨
واجب الوقت ٤٨
العلماء بالدنيا الجهلاء بالآخرة ٤٩
العلماء بالله ٤٩
أهل الطريق يهتدون بهدى السلف الصالح ٥٠
قصيدة ما اختلاف الطريق؟ ٥١
الفهرس ٥٢